

صدى العزة في أشعار الحروب الصليبية

سيد محمد باقر حسيني^١، زهراء أميري^{٢*}

١. أستاذ - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فردوسي، مشهد

٢. طالب دكتوراه - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فردوسي، مشهد

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٤/٥/٣٠؛ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٩/٢٧)

ملخص المقال

أدب الحروب الصليبية، التي فرضت على العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، من جانب أوروبا، وتحت ستار ديني، مع باعث استعماري مجلي لروح العزة ورفض الظلم بين المسلمين، اللذين هما من تعاليم الإسلام القيمة. وهذه وقفة يسيرة عند الأشعار ذات محور العزة ومحاورها الشعرية، التي تبين وجود روح العزة في منشديها المسلمين، على أساس المنهج الوصفي التحليلي، مستهدفة خلق روح العزة وتقوية روح رفض الظلم وتثبيتها في العالم الإسلامي الذي يعاني حالياً من استيلاء العدو الغربي على أفلاذ كبده. وقد أسفر البحث ببيان موجز عن الأهداف الاستعمارية للحروب الصليبية، مما أعقب تصدّي المسلمين، مدافعين عن عزّتهم بأساليب مختلفة، منها إنشاد أشعار كهذه التي سنعرضها، وانصرف كذلك إلى تبيين العزة من منظار الغرب الاستعماري والدين الإسلامي.

الكلمات الرئيسية

الحروب الصليبية، العزة، الشعر الحماسي.

١. مقدمة

إن فكرة العزة وإباء الضيم من مبادئ الدين الإسلامي، ونحلة هذا الدين الكريم للإنسانية، ولقد رافقت الأمة الإسلامية منذ بداية شروق الإسلام، ولها صداها الواسع في خواطر أبناء الحضارة الإسلامية، وتبرز هذه الأصداء جلية في آثارهم الفكرية وخاصة أدبهم، ومنها الآثار الأدبية والأشعار الحماسية لفترة الحروب الصليبية التي فرضتها أوروبا على العالم الإسلامي. وترجع أهمية الموضوع هذا إلى وضع العالم الإسلامي في عصرنا الراهن. ففي حين يعاني هو من هجمات الغرب ضده بمختلف أشكالها ويحس بالذلة من سيطرة الغرب على أفلاذ كبده، طرّح قضية العزة والبحث عنها في تراثنا الأدبي، يوقظ مشاعر العزّ والفخر بماضينا الباهر في الأمة الإسلامية المضطهدة ويبعث على الانطلاق نحو التصدي للظلم ورفض احتماله. ثم إن إنشاد أشعار ذات محور العزة من أقصى نقطة شرقية في العالم الإسلامي آنذاك، وهي خراسان، وفي أدنى نقطة غربية وهي شمال إفريقيا ومصر، يوحي بوجود نوع من الاتحاد الفكري بين الأمة الإسلامية آنذاك، وهي قضية يحتاج إليها العالم الإسلامي حالياً احتياجاً بالغاً. والقرآن الكريم، ثم تراثنا الحديثي من نهج البلاغة ثم الصحيفة السجادية وغيرهما، هي أولى مصادر طرحت هذه الفكرة وعلمها متبنيها، وردّها أبناء الإسلام الذين تعلموا منه درس العزة ورفض الظلم. مما يجدر بالذكر أنّ نظرة هذا البحث إلى هذه القضية - كما توضّح وسيتوضّح فيما بعد - تختلف عن نظرة الحكام المستبدّين العرب، أمثال صدام والقذافي، الذين سمّوا حرب الغرب ضدّهم بالحروب الصليبية. فهذا البحث كما سنرى، ينظر إليها من منظار تعاليم مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

والبحث عن هذه الفكرة في تراثنا الغزير وخاصة الأدبي منه، هو من البحوث الحديثة في عصرنا الحاضر. اليوم وإن بدأت نشاطات جديدة في العالم الإسلامي مستهدفة بعث روح العزة، إلا أنه لم تعالج قضية العزة ومحاورها في المصادر الإسلامية الأولى كالقرآن ونهج البلاغة، وفي أدب العالم الإسلامي، الذي بإمكانه أن يوقظ أحاسيس الفخر بالماضي اللامع في الأمة الإسلامية الخاضعة لاضطهاد الغرب الاستعماري، وباستطاعة هذا البحث أن يبدأ بالخطوة في هذا المسير الهام.

يجدر بالذكر أن هناك كتب عالجت قضية أدب الحروب الصليبية بنظرة مختلفة عن نظرة هذا البحث، فاهتمت بجمع الأدب الذي قيل في الحروب الصليبية ودراستها فنياً، مثل كتاب «شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام» للهرفي، و«بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية» لعبد الجليل حسن، والبحث هذا قد اهتم بدراسة محاور شعرية عن هذه الحروب، تتصاعد منها شميم العزة؛ بعد أن بين سبب ثورتهم العارمة ضدّ هجوم الصليبيين - ومنها الثورة الشعرية - التي هي من أهداف الصليبيين الاستعمارية واستهدافهم مقدّسات المسلمين. ثمّ درس تجذّر مفهوم العزة والتّصدي للظلم في وجودهم، الشيء الذي رسّخه الدين الإسلاميّ فيهم؛ فالهم هنا دراسة روح العزّة ورفض الظلم في هذه الأشعار؛ وكذلك عالج بيان هذا المفهوم في كلتا الثقافتين: الغرب الاستعماري، بمعنى الغطرسة، والسيطرة على الشعوب وعقولهم وأموالهم وثقافتهم، والدين الإسلاميّ بمعان منها التصدي للظلم ورفض احتمال، الشيء الذي اهتمّ البحث بالتحرّي عن صدهاء في أشعار الحروب الصليبية، على أساس المنهج الوصفي والتحليلي. ولا بدّ أن نشير إلى بعض المفاهيم قبل الخوض في صلب الموضوع.

٢. الحروب الصليبية؛ أسبابها وأهدافها

الحروب الصليبية هي هجوم مسلح تكوّن في أوروبا ضد العالم الإسلامي طيلة القرنين السادس والسابع الهجريين، ولها جذور في أوضاع أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في القرن الحادي عشر للميلاد، وأهداف سياسية اقتصادية، وقد كان الدين ستاراً لتحقيق أهدافها. إنّ هذه الحروب تحمل معها أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية مع ستارٍ من العامل الديني وهو دور البابوية في اشتعالها؛ وكلها «ركزت في الدرجة الأولى على جعل السبب الديني ثانوياً، لا أساساً جوهرياً وعاملاً رئيسياً في هذه الحروب» (عاشور، ١٩٨٨، ص٧٧). ومهما كان هذا الاختلاف، فإن الأسباب التي حملت الغرب الأوروبي على هذه الحروب، كلها ترجع إلى غرضين أساسيين: «١. ضغينة الغرب الأوروبي ضد العالم الإسلامي، ٢. دافع الطمع والكسب بمختلف أشكاله» (العروسي المطوي، ١٩٥٤، ص١٥).

وذكر المؤرّخون المحدثون أنّ الملوك الأوروبيين وقادتهم، شاركوا في الحروب الصليبية بدافع خدمة مصالحهم السياسية وضغط الكنيسة «وتهديد من لم ينفذ أمر الكنيسة بإصدار قرارات من حرمان النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا» (عاشور، ١٩٨٨، ص٨١). ومنها تناقض

الأوروبيين لإظهار قدرتهم «خاصةً أنّ كثيراً من الاقطاعيين الذين كانوا قواد هؤلاء الأمراء، كانوا يتمنون لقب «ملك أورشليم» الذي أصبح أكبر الألقاب بعد البابوية» (جروسية، ١٣٨٤، ص ٨). هذا، وقد اعترف الكتّاب الغربيون بالحياة الآمنة المطمئنة للنصارى الذين عاشوا في كنف الإسلام، وبثبات أوضاع الكنائس...

ويعتقد هانس ابرهارد ماير: إنّ الحقيقة أنّ في القرن الثالث عشر، استغلّ غفران الذنوب، لصالح الأهداف السياسية... أي إنهم - أي قادة الحروب - كانوا يأملون أن يعثروا من جمهرة الحضار الذين كان أكثرهم أميين، على أهدافهم السياسية (انظر: ابرهارد ماير، ١٣٧١، ص ٤١ و ٤٣).

أما عن الأسباب الاجتماعية لهذه الحروب، فإنّ قسماً كبيراً من المجتمع الأوروبي، يعيش في ضيق الحياة، فكان الحرب لتحري إقطاعات أخرى لهم (انظر: عمران، ١٩٩٩، ص ١٩ و ٢٠؛ جروسية، ١٣٨٤، ص ١٠؛ رنيسمان، ١٣٨٠، ص ١٥ إلى ١٥٣ و ١٢١ و ١٢٢).

وكثيرون من هم ذهبوا إلى الحروب الصليبية للتخلص من الاقتدار الاجتماعي للأسرة، والوصول إلى حرية أكثر. وكذلك حرص الأمراء للحصول على الغنائم والغنى والارتقاء إلى مناصب أرفع من التي كانوا عليها في بلادهم، جعلت الأمراء الأوروبيين ينظرون إلى الحروب الصليبية كمفرّ لهم من هذه الأزمات، فإننا نرى بينهم رغبة إلى النهب والغارة. (ابرهارد ماير، ١٣٧١، ص ٢٨ و ٢٩) فقد أشار البابا إلى ذلك في خطبة ألقاه أمام آلاف من الناس محرّضاً إياهم: «ذلك بأنّ الأراضي التي تسكنونها الآن... ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً وتتجاربون. طهّروا قلوبكم إذن من الحقد، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدّس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملّكوها أنتم. إن القدس أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباحج...» (عمران، ١٩٩٩، ص ٢).

أما عن الأسباب التجارية، فإنّ تجار أوروبا حرصوا على إيجاد موانئ تجارية لهم في بلاد الشرق، فبذل هؤلاء التجار لهذه الحروب أموال طائلة. ومن الدلائل البارزة على أهدافهم التجارية أنهم لما احتلّوا مدينة دمياط في الحملة الخامسة، واقترح عليهم الملك الكامل إعطاء بيت المقدس ومعظم مدن فلسطين إزاء تنازلهم عن دمياط ومصر، ما قبلوا ذلك، ولو كان هدفهم دينياً فحسب، لم يرفضوا هذا الاقتراح.

وإن خطبة البابا التى ألقاه فى مجمع كلرمون تعدّ تلخيصاً لكلّ ما ذكرناه، فله عبارات مثل: «ليست هذه الحرب لاكتساب مدينة واحدة فقط، بل هي أقاليم آسيا بغناها وخرائتها التى لا تحصى، فاتخذوا محجّة القبر المقدس، واملكوها أنتم، فهذه الأرض كما تقول التوراة تفيض عسلاً ولبناً» (العروسي المطوي، ١٩٥٤، ص١٧).

يتبيّن مما سبق، أنّ الحروب الصليبية ليست فى حقيقة أمرها سوى حرب عدوانية استعمارية شنّها الغرب الأوروبي على العالم الإسلامى، بهدف احتلال بلادهم وتأسيس إمارات داخله، والسيطرة على ثرواته الغزيرة التى لا تحصى، والاستيلاء على تجارة الشرق بتملّك موانئهم، كلّ ذلك تحت شعار الصليب وتخليص بيت المقدس. وقد اعترف كثير من مؤرخي أوروبا ومفكرها المحدثين خاصة الذين اشتهروا بتعصّبهم، والذين نظروا إلى الحركة الصليبية من وجهة نظر غربية بحتة ضمناً أو صراحة، بحقيقة تلك الاتجاهات. ومن هؤلاء المؤرّخ الفرنسي «رينيه جروسية» الذى قال فى كتابه «خلاصة التاريخ»: «إن الحروب الصليبية أدّت إلى أول توسّع استعماري للغرب المسيحى فى الشرق الأوسط». أما الأستاذ «برنارد لويس»، فقد أوضح فى كتابه «العرب فى التاريخ» أن: «تلك الحروب كانت أول محاولة مبكّرة فى التوسّع الاستعماري للغرب، تحرّكها اعتبارات مادية دنيوية ويفعلها الدين كعامل نفساني». ويتحدث المؤرّخ هنري وليم كارس ديفز فى كتابه «أوروبا فى العصور الوسطى» عن الحروب الصليبية تحت عنوان: «الاستعمار الأوروبي»، ويزيد ديفز الأمر وضوحاً فيقول: «وكثيراً ما كان يُنتحل الباعث الدينى بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب» (انظر: نيسم يوسف، ١٩٨١، ص٩٨).

تعريف العزّة: كلمة «العزّة» بمعنى الغلبة والشدة والقوة، والعزير من أسماء الله تعالى، وهو «المنيع الذى لا ينال ولا يُغالب ولا يعجزه شيء ولا مثل له».

٣. ماهية العزّة

تنطلق وجهة نظر كل من الغرب (الفلاسفة الغربيين) والدين الإسلامى فى تحديد ماهية قضية العزّة، من رؤيتهما المادية الاستبدادية أو التوحيدية.

١-٣- في منطق الفلاسفة الغربيين:

للغرب في مجال العلاقات الدولية منظرون، لأرائهم أثار بعيدة في تكوين حياتهم السياسية، وتحديد مظاهر قدرتهم وعزتهم. فقد كانت نظرة صموئيل هنتنغتون توجيه لسياسات المفكرين الأمريكيين في السنين البدائية للقرن الحادي والعشرون. و«فرانسييس فوكوياما» - من أهم الفلاسفة والمفكرين السياسيين الأمريكيين المعاصرين - كان له أبعاد الأثر في السياسات الأمريكية. وهو قد صور في كتابه المشهور «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» مظاهر قدرة الغرب وعزته، ويعتبر الغرب في عصره الراهن، تجسّم القدرة والعزة الحقيقية وهو الآن في ذروتها.

فوكوياما يعتقد في هذا الكتاب أن التاريخ قد انتهى مع انتصار الغرب ليكون ماهية حياة الناس السياسية والاقتصادية والثقافية، ومن الآن فصاعداً سيستمر التاريخ في حركته في إطار سيادة الليبرالية الغربية على العالم. وكانت هي الوحيدة التي أتت للجماهير في الغرب بالحرية والسعة المادية ما لا نظير لها مدى التاريخ. والغربيون يمتلكون الآن ثمانين بالمائة من كل ثروات العالم - وهم يعدّون هذه الثروة من مظاهر قدرتهم وعزهم، ويستخدمونها للاستيلاء على شعوب العالم - وأمريكا هي قائدة هذه الليبرالية العالمية بزعمه.

والدليل على فشل نظرية فوكوياما، تصاعد أفكار إسلامية في الشرق الأوسط، ونجاح الحركات اليسارية في أمريكا الجنوبية. وتخلّى فوكوياما صراحة عن ولائه لأفكار المحافظين الجدد، بعد اعتقاده بأن على الولايات المتحدة أن تستخدم القوة في ترويجها للديمقراطية - وهذه القوة هي مظهر العزة عندهم - نافياً أن تكون الحرب العسكريه هي الإجابة الصحيحة على الحرب على الإرهاب، واعتقد أن المعركة الحقيقية هي معركة كسب عقول وقلوب المسلمين. وهذا مظهر آخر من مظاهر القدرة والعزة عندهم، يتم عن طريق الاستيلاء على وسائل الإعلام.

هذا، وإن كان فوكوياما يرى اقتدار الغرب وعزته في ديمقراطيته، وفي الليبرالية، والحرية الغربية، والرأسمالية، والرفاهية في البلاد الغربية، وفي القوة العسكرية، والتفوق في معركة الاستيلاء على القلوب والعقول في العالم، بهدف السيطرة على أسواقهم ومنابعهم الطبيعية وأمثالها، إلا أنه لم يفت عن نظرة الاقتدار العديم النظرير للثقافة الإسلامية، ولم يستكف عن الاعتراف بعدم قبولها وقبول معتقبيها الفشل، كما نراه يعتقد أنه هناك شيئان جعلتا الشيعة غير قابلة للفشل دائماً، وهما: «ثقافة الانتظار» و«ولاية الفقيه».

٢-٢- من منظار الدين الإسلامي:

إنّ النظرة إلى قضيّة العزّة في الثقافة الإسلامية، تنطلق من الرؤية التوحيدية. فقد ذهبت الآيات والروايات إلى أنّ العزّة المطلقة منحصرة في الله وحده. ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا المعنى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٣٩). وقال الإمام علي عليه السلام: «كلُّ عزيز غيره ذليل» (نهج البلاغة، الخطبة ٦٥) فالعزّة المطلقة له سبحانه، وتحيط من اختصه الله بعزّته، وهم الرسول والمؤمنون به وباللّٰه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨) وليس لأحدٍ من عباده عزٌّ إلا به وبعبادته سبحانه. وكلُّ الجبابرة خاضعون أمام عزّته وقدرته المطلقة؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً أمام قدرته.

وأهل البيت عليهم السلام الذين هم القمّة في عبوديته، اعتبروا عبوديته سبحانه ذروة العزّ للإنسان، وقال الإمام علي عليه السلام: «إلهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً...» (المجلسي، ١٩٨٣، ج ٧٤، ص ٤٠٠). والعزّة من منظار الثقافة الإسلامية تكتسب بأمر، مصدرها التوحيد، ومنها رفض الذلّ وعدم قبول الظلم والتصدي للجبابرة وتتمثّل ذروتها في الإمام الحسين عليه السلام، وله الكلام المشهور: «موت في عزٍّ خيرٌ من حياة في ذلٍّ». وقد اعترف المفكرون الغربيون بعظمة فكرة العزّة في الثقافة الإسلامية، وأشادوا ببطله العظيم، ورمز الإباء والعزّة ورفض الضيم، الإمام الحسين عليه السلام.

وأخيراً، فقد ورث أبناء الإسلام عنه العزّة والإباء ورفض الضيم والتصدي له، ويتجلّى ذلك بوضوح في آثارهم وأدبهم، وتثقف شعراء الحروب الصليبية المسلمين بهذه الثقافة القيّمة، وانعكس ذلك في أشعارهم، نتحدّث عنها في هذا المجال. فقد تصدّى المسلمون للصليبيين المحتلين، وخاصة الشعراء منهم، المتثقفون بثقافة العزّة الإسلامية، الممتلكون روح الإباء السامية، وواكب أشعار هؤلاء الشعراء هذه الحروب وجهادهم فيها منذ بدايتها حتى نهايتها. وكان كثير من شعرهم في هذا المجال، شعراً مقاوماً حاثاً مدافعاً عن الدين وعن عزّة المسلمين وكرامتهم، ومتحمساً يدعو إلى الجهاد، ويهتمّ بالتثوير، ويشيع روح المقاومة في النفوس، ولم يكن شعراً باكياً مكتفياً بشرح الأحداث المحزنة والمشاعر المؤلمة.

٤. صدى العزة في موضوعات هذه الأشعار

تدلّ المحاور الشعرية - التي جعلوا التحدث عنها بعنايتهم - على انطباع نفوس هؤلاء الشعراء

بالعزّة الإسلامية، فتموج أصداؤها في أشعارهم الحماسية الجهادية. وفيما يلي نستعرض عدّة محاور استوعبتها أشعارهم هذه، ومظاهر العزّة ومصاديقها التي نستشفّها من هذه الأشعار:

٤-١. الفرح بعودة الاطمئنان إلى الأمة

إظهار الفرح من قبل شعراء الحروب الصليبية بعودة السرور والرجاء والاطمئنان إلى الأمة الإسلامية باسترداد البلدان المحتلة من الصليبيين وردّها إلى حضن الأمة الإسلامية بعد خيبتهم عنها، يذكرنا بالعزّة التي انطبعت نفوس المسلمين بها آنذاك. فإن التهلّل بالنسبة لاسترجاع المدن إلى حضن الأمة الإسلامية وعودة الأمن والراحة إليها، من قبل الشاعر المسلم، لا يتأتّى إلا بعد ترسيخ روح العزّة ورفض الظلم في ضمير الشاعر.

فهذا ابن القيسراني يمدح الملك نور الدين بأنه أصلح صدع الدهر بجهاده وحقب فرس الدهر بعد امتناعه، وفتح باب الحظّ أمام الناس بعد أن أغلق دونهم من جرّاء معاداة الصليبيين، ويسرّ لهم نيل أمانهم بعد أن خابوا من وصولها:

سَكَنْتَ شَعْبَ الدَّهْرِ بَعْدَ تَخْمُطٍ	وَأَلَنْتَ مِنْ عَطْفِيهِ بَعْدَ شِمَاسٍ
وَفَتَحْتَ بَابَ الْحِظِّ بَعْدَ رِتَاجِهِ	وَأَذْنَبْتَ لِلْأَطْمَاعِ بَعْدَ الْيَاسِ
حَتَّى مَنَحْتَ الْخَلْقَ كُلَّ مَسْرَةٍ	فَالنَّاسِ فِي عُرْسٍ مِنَ الْأَعْرَاسِ

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ٢٠)

وفي قصيدة له في العماد الزنكي يهنّئه بفتح الرها - من البلاد الشامية - ويعبر عن إعادته الاطمئنان إلى القلوب الخائفة، قائلاً:

أَرَا حَ قُلُوباً طَبْرَنَ عَنْ وُكُنَاتِهَا	عَلَيْهَا قَوَافٍ كُلُّ صَدْرٍ فِؤَادُهُ
--	--

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ٣٨)

وأشدد أبو الحسن علي بن محمد السخاوي، مادحاً فيه صلاح الدين بإعادته الأمن إلى البيت الحرام، فيأتيه الناس آمنين بعد محو معالم سبله، وتعدّزّ قصده لوجود الخوف فيه:

١. الشعب: الصدع/ التخبط: التكبر/ الشمس: الإباء/ الرتاج: إغلاق الباب

وبه أتى البيتَ الحرامَ وفُودُهُ مِنْ كَلِّ فَجٍّ آمَنِينَ الْمُرْدَا
من بعد ما دُرستْ مَعَالِمُ سُبُلِهِ دَهْرًا، وَعَزَّ لَخَوْفِهِ أَنْ يُقْصَدَا

(المقدسي، دون تا، ج ٢، ص ١٠٧)

وفي البيت إشارة إلى تهديد الصليبيين قوافل الحجاج في طريقهم إلى الحجاز.

٢-٤- إعادة المعالم الإسلامية إلى البلاد الإسلامية

من الأمور التي أحدثتها فتوح البلاد الإسلامية واستردادها من المحتلين بيد أبطال الحروب الصليبية المسلمين، الفرح بإعادة الإسلام وآثاره إليها ورفع راياته فيها ومحو آثار الكفر بعد حل الكفر فيها، ومحو معالم الإسلام منها، وذلك مثل: رفع صوت الأذان بدل نواقيس الكنائس، وتكسر الصليبان، وعود الهدى والإيمان والتوحيد؛ ووجود هذه المعاني في أشعارهم يشير إلى وجود الحمية الدينية في الشعراء واعتزازهم بدينهم.

وذلك كانتساب ابن سناء الملك إقامة التوحيد بدل التثليث إلى صلاح الدين مادحاً إياه:

أَقَمْتَ بِهَا التَّوْحِيدَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَأَنْسَيْتَ فِيهَا الرُّوحَ وَالْأَبَ وَالْإِبْنَا
وَقَدْ أَصْبَحَ الْإِسْلَامُ وَالْكَفْرُ كَلِمًا بَنِيَتْ لَذَا رُكْنًا هَدَمَتْ لَذَا رُكْنَا

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ص ٧٥٨)

تشير مضامين البيت إلى وجود الحمية الدينية، وروح رفض الظلم في الشاعر.

والرشيد بن بدر النابلسي سمى فاتح بيت المقدس بهجة القدس، إذ نشر راية الإسلام فيها بعد طيئه، وهي رمز الوحدة ومعلم الاهتداء، ونور المسجد الأقصى لما رفع به الآيات بعد أن رفع فيها الصليب، ورفع صوت الأذان الذي تقشعر له الذرى بدل صوت الناقوس:

يَا نَوْرَ مَسْجِدِهِ الْأَقْصَى وَقَدْ رُفِعَتْ بَعْدَ الصَّلِيبِ بِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ
شَتَّانِ مَا بَيْنَ نَاقُوسِ يُدَانُ بِهِ وَبَيْنَ ذِي مَنْطِقٍ يُصْفِي لَهُ الْحَجْرُ
اللَّهُ أَكْبَرُ صَوْتٌ تَقْشَعِرُ لَهُ شُمُّ الذَّرَى وَتَكَادُ الْأَرْضُ تَنْفَطِرُ

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ج ٢، ص ١١٩)

ويتضح لنا في البيت مدى عظمة المسجد الأقصى لدى المسلمين ومدى سرورهم باستردادها من المحتلين.

ولابن القيسراني في مديح نور الدين، معبراً عن إحلاله الأذان بدل النواقيس:
رُعتَ نَواميسَ نواقيسِها بجلبِةِ الأذانِ وقِستَ الأذانِ

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ج ١، ص ٢٠)

وتكرار مصطلحات دينية إسلامية، يدل على تعظيم هؤلاء الشعراء الشعائر الإسلامية آنذاك وتعلقهم بها.

٤-٣- التغني بما حلّ بملوك الصليبيين من القتل والأسر

من المعاني التي اهتم شعراء الحروب الصليبية بذكرها في شعرهم، ذكر ما ألحق ملوك المسلمين وجيوشهم بملوك الصليبيين من القتل والأسر والهوان، فقد كان تصوير قتلهم أو أسرهم في الشعر يقوي معنويات المسلمين في جهادهم مع عدوهم الصليبي. وممن سمّاهم الشعراء في أشعارهم من ملوك الصليبيين المقتولين أو الأسراء: البرنس، وجوسلين، وأرناط، ومري، وهنفري، والكند، وبادويل، وقومص، والشاني، والباروني، وغيرهم. من ذلك ما يصفه ابن سناء الملك في قصيدة له، من أسر ملوك الصليبيين: بادويل والكند واليسكند وغيرهم، وتسجينهم، وبكائهم، ولعنهم علي أنفسهم:

وأضحى أسيراً بادويلٌ وغيره قرونٌ ملوكٍ كم أبادوا لهم قرنا
أسارى جبارى لا يرجون فدية ولا ياملون الدهر فكاً ولا أمنا
وهل زادهم بالسجن ضيقاً عليهم وقد جعل الأرض الفضاء لهم سجنا
بكى الكند واليسكند لا وحشة لهم ولكن على نفسيهما أسبلاً الجفنا
غدا بادويلٌ وهو يلعن نفسه وحق لتلك النفس أن تربح اللعنا

(ابن سناء الملك، ١٩٧٥، ج ١، ص ٧٦)

وإن وحشتهم في الأسر وفزعهم منه، وعدم تثبتهم في موقفهم - كما أشير إليه في الأبيات المذكورة في وصف حال ملوك الصليبيين بعد الأسر - إضافة إلى سعة أسر الصليبيين بيد المسلمين وقتلهم، دون المسلمين، تدلنا على عدم تحمسهم في مقاتلة المسلمين؛ وهذا علاوة على الحجج الأخرى في هذا المجال - يسفر عن عدوانية هجومهم ودافعهم الاستعماري فيه -

وأنهم لم تكن لهم حجة تبرّر هجومهم على البلاد الإسلامية، فلم يكن لهم حقّ في تلك البلدان المحتلة، وفي الإمارات الصليبية التي أسسوها؛ ولو لم يكن كذلك، لكانوا متحمسين في استرداد حقّهم. وهذا أوضح دليل على كثرة انهزاماتهم من المسلمين وانسحاباتهم.

ويبيّن كمال الدين الشهرزوري في أبياته أنهم أصبحت رؤوسهم تسجد للسيوف؛ لأنّها أبت السجود لله، وأنّ رؤوسهم غمود تلك السيوف، لما تدخل فيه من هذه السيوف، لما سلّت السيوف من أعمادها:

غدا ملوك الروم في دولته	وهم على رُغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سُجودها	لله، أضحى للظبّى سُجودها
إن فارقت سيوفه غمودها	فإن هاماتهم غمودها

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ١٤٨)

٤-٤- استنهاض همم أمراء المسلمين للجهاد

ليس يخفى علينا التأثير السحريّ والقدرة الاستنهاضية للشعر المثور المهيّج، ولكلماته ذات ثورة عارمة، ولموسيقاه المطنطن، في الديب في القلوب وبعث الحميّة فيها، وهذا ممّا استعان به شعراء الحروب الصليبية، وساعدهم، وهو من أسمى المعاني في هذه الأشعار. وكان طلائع بن رزيك، الوزير الفاطمي، أكثرهم ولوعاً بهذا المعنى، ونلمس في مراسلاته الشعرية مع أسامة بن منقذ، في بلاط الزنكيين، شدة حرصه على تحريض نور الدين على جهادهم عن طريق صديقه أسامة.

وكان العماد ممّن نجد في أشعاره الحثّ على جهادهم، فقال في قصيدة في مديح نور الدين حاثاً إياه على غزو الفرنج وتطهير القدس من رجسهم، والانقضاض عليهم كوثوب

الصقر الشهبان للحم على اللحم:

أغزُ الفرنج فهذا وقتُ غزوّهم	واحطمِ جموعهم بالذابل الحطّم
وطهرِ القدس من رجس الصليب وثب	على البُغاة وثوب الأجدل القطم
فملك مصرٍ وملك الشام قد نُظما	في عقد عزٍّ من الإسلام منتظّم

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ١٧٥)

١. الذابل: الدقيق، صفة للرمح/ الحطم: الأكل الذي يحطم كلّ شيء أكلاً/ الأجدل: الصقر الشهبان للحم

وهذا ابن النبيه المصري قد حاول تحريك همّة «الأشرف موسى»، ونفسه تشغلها اللّهفة والثورة والغضب للدين، ومن اضطهاد الفرنج البغاة، والتأسّف من التثاقل، طالباً منه تجهيز جيوشه لحفظ ثغور المسلمين من عبث الفرنج بها، ويحرّض المسلمين على إظهار حميتهم واستيقاظهم من نومهم:

يا حارسَ الدينِ لما نامَ حارسُهُ	وناظماً شَمَلَهُ مِن بَعْدِ تَبْدِيدِ
جَهَّزَ جيوشَكَ إِنَّ الثَّغْرَ قَدْ عَبَّتْ	به الفرنجُ فأضحى غيرَ مَنضودِ
أَيُدرِكُونَ بِهِ أوتارَ قُدْسِهِمْ	منكم، وذلك مُلْكٌ غيرُ مردودِ
يا لَدَرِّ جالِ أناديكم لِنازِلَةٍ	تَسْتَنْزِلُ المَاءَ مِن صُمِّ الجَلَامِيدِ
أينَ الحَمِيَّةُ هُبُّوا مِن مَنامِكُمْ	إِما لِعاجِلِ دُنيا أَوْ لِمَعْبودِ

(ابن نبيه، ١٩٦٩، ص ٣٧٤)

وقال أيضاً في الملك الأشرف موسى لما حضر إلى دمياط، مستهلاً قصيدته بتشجيعه على نشر لوائه للجهاد:

لِلذَّةِ الجِيشِ والأفراحِ أوقاتُ	فَأَنْشُرْ لِوَاءَ لَهُ بالنصرِ عاداتُ
أمامَ جيشِكَ أنِّي سارَ أربَعَةٌ	نَصلُ ونصرٌ وآراءٌ وراياتُ
وتحتَ غيلِ القَنَسا فُرسانُ معركةٍ	لها ثُباتٌ وفي الهيجاءِ وَثباتُ

ثم يعود بعد أبيات إلى استنهاض عزيمة الملك للجهاد، مشبهاً دمياط بطور، والملك الأشرف موسى بالنبي موسى عليه السلام، ونار الحرب بنار أنسها، ويوم الجهاد بميقات موسى عليه السلام، حاثاً إياه بتفريق ليل كفرهم بصباح الجهاد، داعياً إياه إلى تصويب سلاحه الذي شبّهه بعضا النبي موسى عليه السلام نحوهم ليتلقّف كل ما أفكوا، فإن حبالهم حيات:

دمياطُ طُورٌ ونارِ الحربِ موقَدَةٌ	وأنتَ موسى وهذا اليومِ ميقاتُ
أنتَ الصبّاحِ فَمَزَّقْ ليلَ كفرِهِمْ	واصبِرْ ورايطِ فللأعمالِ نياتُ
ألقِ العِصا تَتَلَقَّفُ كلَّ ما أفكوا	ولا تَخَفْ ما حبالُ القومِ حياتُ
طأهم بجيشِكَ لا تحفَلْ بكثرتهم	فإنّهم لِبُغاثِ الطيرِ أقواتُ
أصبتهم بسهامِ الرأيِ مِن حَلْبِ	وللمكائدِ مِن بَعْدِ إصاباتُ

فَطَهَّرَ اللَّهُ ذَاكَ الثَّغْرَ مِنْ قَلَجٍ أَصَابَهُ وَانْجَلَّتْ تِلْكَ الثِّيَابُ^١

(ابن نبيه، ١٩٦٩، ص ٣٥ و ٣٥٨ و ٣٥٩)

فإن ما تخلل الأبيات من التشبيهات الرائعة والتعبيرات التي تنبض بالعاطفة من شأنها أن تلهب حماسة الملك وتذكي شعلة الثورة في نفسه، ثم جعله أمام مشاهد الحق فيها الملك أضرار فادحة بالمحتلين فهم بين قتلى وأسرى، فهذه التعبيرات أقوى ما يكون في التمكن من قلبه وجعله يندفع نحو دفع ظلم الصليبيين.

٤-٥- الإشادة ببسالة جيوش المسلمين

هناك تصاوير فنية رشيقة وأوصاف عذبة بين أشعار الحروب الصليبية عن بطولة جيوش المسلمين تشغل أنفسهم الثورة والتحمس لدينهم، وتزيّن أرواحهم روح العزة في جهادهم للصليبيين. ومن أجملها ما أنشده الشاعر شهاب الدين الحلبي، لما فتح السلطان الأشرف خليل قلعة الروم من الصليبيين بعد أن حاصرها خمسة وعشرين يوماً، فأنبرى الشاعر لتهنئة الملك بقصيدة وأشاد فيها بجيوشه الشجعان بوصف عذب رشيق:

صَوَّارُمُهُ أَنهَارُهُ، وَالقَنَا الزَّهْرُ	فَصَبَّحَتْهَا بِالْجَيْشِ كَالرُّوْضِ بَهْجَةً
وَجُرْدُ الْمَذَاكِي السُّفْنِ، وَالخُودُ الدُرُّ	وَأَبْعَدَتْ، بَلْ كَالْبَحْرِ وَالْبَيْضِ مَوْجُهُ
أَهْلِيَّتَهُ، وَالنَّبِيلُ أَنْجَمُ سَهْلِهِ الزُّهْرُ	وَأَغْرَبَتْ، بَلْ كَاللَّيْلِ عَوْجُ سَيُوفِهِ
جِيُوشُكَ، وَالْأَمَالُ رَايَاتُكَ الصُّفْرُ	وَأَخْطَاتُ، لَا بَلْ كَالنَّهَارِ فَشَمْسُهُ
لَهَا كُلُّ يَوْمٍ فِي ذُرَا ظَفَرِ ظَفَرٍ	لُيُوتُ مِنَ الْأَتْرَاكِ آجَامُهَا الْقَنَا
عَلَيْهِمْ وَلَا يَنْهَلُ مِنْ فَوْقِهِمْ قَطْرُ	فَلَا الرِّيحُ تَسْرِي بَيْنَهُمْ لِأَنْسِبَاكِهِ
إِذَا مَا رَمَاهَا الْقَوْسُ وَالنَّظْرُ الشَّرُّ	يُرَى الْمَوْتُ مَعْقُوداً بِهَدَبِ نِبَالِهِمْ
وَفِي كُلِّ قَوْسٍ مَدٌّ سَاعِدِهِ بَدْرُ	فَفِي كُلِّ سِرْجٍ غُصْنُ بَانٍ مُهْفَهَفُ
وَأَصْبَحَ سَهْلاً تَحْتَ خَيْلِهِمُ الْوَعْرُ	إِذَا صَدَمُوا صُمَّ الْجِبَالِ تَزَلْزَلَتْ
لِقِيلِ هُنَا قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى نَهْرُ	وَلَوْ وَرَدَتْ مَاءَ الْفُرَاتِ خِيُولُهُ

(رزق سليم، ١٩٦٥، ج ٨، ص ٦٢)

١. القلح: الوسخ والقدارة التي تعلق الأسنان

٢. الهدب: طول الأغصان وتدلّيها/ النبال: السهام/ الشَّرُّ: النظر بجانب العينين من إعراض وغضب/

المهفهف: الضامر البطن

إنّ تدرّج الشاعر في الإتيان بتشبيهات ناضرة عذبة، والتصعيد في إبداع تشبيهات، كل واحد منها أروع من السابق، بالإضراب عن تشبيهه إلى آخر، بحيث كلما تتكامل صورة، تزيد روعة وجمالاً مما قبل، أكسب الأبيات جمالاً سحرياً يجعل شعور المخاطب يتصاعد، كلما تتكامل صورة بعد الأخرى وتستع دائرة التشبيهات.

ثم إن مبالغات الشاعر حلوة في وصف شجاعة الأبطال، بحيث إنهم من الوحدة والانسباك ما لا تستطيع الرياح أن تفض إلى ما بينهم ولا قطرات الماء، وموت أعدائهم مربوط بأذيال رماحهم لا تصيبهم إلا وتقتلهم، وتتنزل الجبال الصعبة من خوفهم، حتى إن خيولهم من القوة ما تجعل الأنهار تفوص ماؤها في الأرض، تُكسب الأبيات سلطاناً عاطفياً يسيطر على كل شعور القارئ، ويجعل الأبيات من أروع ما أنشدت في أبطال الحروب الصليبية.

فلما قدمت الفرنج الديار المصرية على زمن وزارة طلائع عليها، وتصدّى لهم طلائع بفرسانه، مدح عمارة اليميني أبطال هذه الحروب وأشاد بشجاعاتهم:

أطفأت جمرتها بإخوتك الأولى	يتسندمون غوارب الأهوال
لم أدر والتشبيه يقصر عنهم	أغيوث نزل أم ليوث نزال
طلت بأيديهم قصار صوارم	باتت بها الأعمار غير طوال

(عمارة اليميني، ١٨٩٧، ص ٧٥)

وزاد من جمال هذه التشبيهات ما استخدم فيه من الجناس والطباق، فقد تجانس الشاعر بين: غيوث وليوث، ونزل ونزال، وطابق بين قصار وطوال، والإطفاء والجمرة.

ووصف صفي الدين الحلّي فرسان الملك المنصور، لما فتح حصناً من الصليبيين، وزاد المبالغة والتشبيه البديع من جمال وصفه، فهم من الشجاعة بحيث كأنهم لبسوا دروعاً من القلوب الشجاعة فوق أجسامهم:

حتى رميت حصونها بكتائب	شهب، وقادت لها الجياد القودا
بقساور قللت عديداً في اللقا	ومن الشجاعة أن تقل عديدا
من فتية كسروا غمود سيوفهم	واستبدلوا قلل الرؤوس غمودا

١. تسنم الناقة: ركب سنامها/ النزل: ما هيئ للضيف/ الغوارب: الكواهل

رَفَضُوا الدَّرُوعَ عَنِ الْجِسْمِ وَأَسْبَغُوا فَوْقَ الْجِسْمِ مِنَ الْقُلُوبِ دُرُوعًا
لَوْلَمْ يُورَدْ خَدُّهَا مِنْهُمْ حَيًّا جَعَلُوا الدَّمَاءَ لَخَدِّهَا تَوْرِيدًا
(الحلي، دون تا، ص ١١٠)

ولاشك أن شجاعتهم هذه، بحيث إنهم قليلوا العدد في لقاء أعدائهم الصليبيين - كما عبّر الشاعر عن ذلك - تنطلق من تحمس ديني تغلي في باطنهم وتستثير حماسهم للبطش بالاحتل.

٤-٦- التنويه بحماية الملك المجاهد للصليبيين عن الإسلام

من المعاني التي تظهر في مدائح شعراء الحروب الصليبية لأبطال هذه الحروب المجاهدين، مدح هؤلاء الملوك المجاهدين بأن محاربتهم للصليبيين، ليست إلا من أجل حماية الإسلام والدفاع عنه، وليست للدفاع عن وطنهم بأنه جزء من الوطن العربي، وليست للعصبية العربية، بل حمية دينية تدفع نحو الدفاع عن الإسلام وشعائره ومعامله وحمايته من العدو الصليبي.

وقال ابن عنين في هذا المعنى مادحاً الملك المعظم عيسى:

فَفَرَجَ ضَيْقَ الْقَوْمِ عَنَّا طِعَانُهُ وَشَتَّتْ شَمَلَ الْكُفْرِ عَنَّا ضِرَابُهُ
وَأَصْبَحَ وَجْهُ الدِّينِ بَعْدَ عُبُوسِهِ طَلِيقًا، وَلَوْلَاهُ لَطَالَ اِكْتِتَابُهُ
جِهَادٌ لَوَجْهِ اللَّهِ فِي نَصْرِ دِينِهِ وَفِي طَاعَةِ اللَّهِ الْعَزِيزِ اِحْتِسَابُهُ
حَمِيَّةَ حِمَى الْإِسْلَامِ فَالِدِينَ أَمِينٌ تُذَادُ أَقَاصِيَهُ يُخْشَى وَيُخْشَى جِنَابُهُ
(ابن عنين، دون تا، ص ٢١)

فالذي دفع الشاعر نحو التغني بهذه الأبيات، الفرح والارتياح المنبعثين من روح العزة، اللذان أحسّ الشاعر بهما، واللذان دفعا الشاعر إلى مدح الملك باهتمامه بجهاد المحتلين.

وقال أيضاً في الملك المعظم عيسى مادحاً إياه بدفاعه عن حوزة الإسلام، وأبياته من أسمى الأبيات في هذا المعنى:

لَوْلَا دِفَاعُكَ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَا عَنِ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ عَادَ كَمَا بَدَا
وَدِيَارُ مِصْرٍ لَوَوَّتْ عِزْمَاتُهُ عَنِ نَصْرِهَا لَتَمَكَّنْتَ فِيهَا الْعَدَى
وَلَأَمْسَتْ الْبَيْضُ الْحِرَائِرُ أَسْهُمًا فِيهَا سَبَايَا، وَالْمَوَالِي أَعْبَادَا

١. الكتيبة الشهباء: العظيمة الكثيرة السلاح/ القود: ج أقود: وهو من الخيل الذليل المنقاد

ولأصحبت خيلَ الفرنج مُغيرةً تُجتاب ما بين البقيع إلى كدى
 وبثغر دمياطٍ فكم من ببيعةٍ عُبد الصليبُ بها وكانت مسجدا
 أجليت ليلَ الكفر عنها فانطوى وأنرت في عرصاتها فجر الهدى^١

(ابن عنين، دون تا، ص ١٦)

فالذي كان يبعث قلق الشاعر واستياءه، لو لم يكن دفاع الملك عن حمى الإسلام، لتمكن الأعداء من مصر واحتلالها، وسبي النساء والرجال، وتحول المساجد إلى الكنائس، والتوحيد إلى الكفر، وهذا القلق خير دليل على الحمية والعزة ورفض الظلم في ضمير الشاعر. كما يتضح من الأبيات، لاشك أن دور الشعراء وأدبهم الذي كان يستثير عواطف الأبطال ويشجعهم ويقوي عزائمهم في استمرار الجهاد، ويقدر مجاهداتهم، ليس أقل في الأهمية من دور هؤلاء المجاهدين، في طرد المحتلين نهائياً عن البلاد الإسلامية.

٤-٧- هجاء المتقاعسين عن الجهاد

وهذا المحور ممّا قصر فيه شعراء الحروب الصليبية، وحبذا لو كانوا قد اهتموا بهذا الموضوع في أشعارهم أكثر ممّا أنشدوه. فقد كان يسبب إيقاظ أمراء المسلمين من نومهم، ويؤثر في إحجامهم عن التقاعس في الجهاد، إلا أننا لا نجد أبياتاً في هذا الموضوع إلا القليل النادر، ولعل سببه روح الملق التي سادت كثيراً من شعراء العصر. وهذا القصور من قبل شعراء الحروب الصليبية قصور غير قابل للاغماض عنه.

إلا أنه هناك قصيدة وهي لقدرتها التوبيخية العظيمة، تملأ قسماً من هذا الخلاء العميق، وهي قصيدة الأبيوردي، أنشدها لما أغار الصليبيون على بيت المقدس، وقتلوا فيها من المسلمين ما قتلوا، وشملوا المدينة بالدمار والخراب، فلم يكن من الأمة الإسلامية ردود فعل تناسب هذه الفادحة، فأنشد الأبيوردي قصيدة حارة يدعوهم فيها إلى الجهاد واستنقاذ الأمة الإسلامية، متكرراً على المتقاعسين عن جهادهم بهذه الأبيات القارعة:

أرى أمّتي لا يُشرعون إلى العدى رماحهم والدينُ واهي الدعائم
 ثم يجعل يحرك مشاعرهم ويستثير غيرتهم بانتساب الخوف وفقدان الفيرة والرضى

١. البقيع: مقبرة معرفة بالمدينة/ الكدى: موضع بأسفل مكة

بالذل إليهم، مستكراً ذلك عليهم:

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العارَ ضربةً لازمٍ
أترضى صناديد الأعراب بالأذى ويغضبي على ذلِّ كماء الأعاجم
ثم عن طريق إشارة الشعور الديني أو الغيرة بالمحارم أسفاً من فقدان كليهما فيهم:
فيلتهم إذ لم يذودوا حميةً عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارم
ثم عن طريق بعث حبِّ الأجر من الله أو حبِّ المال فيهم، مؤنباً إياهم:
وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغى فهلّا أتوه رغبة في الغنائم
ثم يذكرهم بختهم أمرهم إلى الذل، إذا بقوا راضين على هذا الذل، والاستسلام أمام العدو بتعبير كئابي:

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
(الأيوردي، ١٩٨٧، ص ١٥٦)

ومن الأبيات في هذا المجال قول العماد في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين لما فتح بيت المقدس، هاجياً الملوك قبله الذين لم يقوموا بتحريرها:

كم من فحول ملوك غودروا وهم خوفَ الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس فخام عنها وصمّت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الـ إسلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ إسلام أنصاره صمّ وعميان
(المقدسي، دون تا، ج ٢، ص ١٠٥)

وقد قصد الشاعر انتساب الفضل في فتح البلاد المحتلة إلى صلاح الدين دون غيره من الملوك وقد وفق في ذلك.

٤-٨- الإشادة بالعزم الماضي للملوك المسلمين في الجهاد

وقد كان لهذا الموضوع في أشعار الحروب الصليبية أثر بعيد في تخفيز هؤلاء الملوك المجاهدين وتقوية معنوياتهم الجهادية. من أمثلة ذلك ما قال ابن القيسراني في قصيدة

١ - خام عنه: نكص وجبن وأحجم عنه/ الريق: حبل فيه عدة عرى

أنشدها لنور الدين بجسر الحديد الفاصل بين حلب وعمل أنطاكية، مؤكداً على شدة أثر الهمم البعيده في الانتصار ولا السيوف لوحدها، ولا ما تكهنته الكتب، متأثراً بأبي تمام في ذلك، ومشيداً بعزمه الماضي:

هذي العزائمُ لا ما تدعي القُضْبُ وذي المكارم لا ما قالتِ الكتبُ
وهذه الهممُ اللاتي متى خَطَبْتِ تعثرت خلفها الأشعارُ والخطبُ
لله عزمك ما أمضي وهمك ما أفضى اتساعاً بما ضاقت به الحقبُ

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ٥٨)

وهذه القصيدة في وزن قصيدة أبي تمام، ورويتها ومعانيها أنشدها عند فتح معتمص لعمورية وأخذها من الروميين، وتأثر بها شعراء الحروب الصليبية تأثراً بعيداً، وقد أرجع أبو تمام الفضل في انتصار معتمص على الروم إلى السيوف دون التكهّنات، وأرجعه ابن القيسراني إلى عزم نور الدين ولا إلى السيوف.

وأشاد عمارة اليميني بعزم بني أيوب بأنه «عزمة أسدية» وهو الذي استطاعوا به أن يفككوا الإسلام من الأسر:

حمى الله فيكم عزمة أسديةً فككتم بها الإسلام من ريقه الأسرِ

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ١٦٣)

ويصف كمال الدين الشهرزوري عزم الملك نور الدين بأنه مفتاح المغلقات من الحصون:

كم مغلقات من حصون عزمه مفتاحها وسيفه إقليدها

(المقدسي، دون تا، ج ١، ص ١٤٨)

وافتح أبو الحسن علي بن الساعاتي قصيدته في مدح صلاح الدين لما فتح طبرية، ببيان عظمة عزومات الملك، وأنّ الفتح نتج عن هذه العزمات:

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قررت عيون المؤمنيننا

(ابن الساعاتي، ١٩٣٨، ص ٤٠٦)

ويتضمن الإشادة بعزمات الملوك المسلمين في جهاد الصليبيين غرضاً آخر ضمناً، وهو تحفيز هؤلاء الملوك على مجاهدات أكثر لفتح البلاد المحتلة، وهو الذي مدحوا بسببه عزمهم.

٤-٩- تصوير ذلّ الصليبيين وهزيمتهم وأسرههم

يدلّ هذا التصوير من قبل شعراء الحروب الصليبية متغنين بها فرحين، على انطباع نفوسهم بالعزة الإسلامية، متجلية في أشعارهم. وهذا المحور الشعري قد استغرق أكثر الحجم بين أشعار الحروب الصليبية.

من أجمل الأشعار في هذا المجال، أبيات طلائع بن رزيك الذي أخذ يصور فيها الهزائم التي ألحقها مع جيوشه بالعدو الصليبي، في تصاوير جميلة موحية، وشعره هذا في ذروة العز، يصور هزيمتهم أجمل تصوير، وعزّ المسلمين وغلبيتهم عليهم:

عليها عتاق الخيل كالتنفّ السهب	جعلنا جبال القدس فيها وقد جرّت
سهولاً توطأ للفوارس والركب	فقد أصبحت أوعارها وحزونها
صيبنا عليها وابلاً من دم سكب	ولما غدت لأماء في جنباتها
نجيعاً فأغنتها الغداة عن السحب	وجادت بها سحب الدروع من العدا
ولكن بحاراً ليس تعذب للشرب	وأجرت بحاراً منه فوق جبالها
بها ولكم خصب أضر من الجذب	فقد عمها خصب به من رؤوسهم
مراراً وكانت قبل أمنة الشرب	وقد روعتها خيلنا قبل هذه
فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب ^١	وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها

(العماد، ١٩٥٢، ص ١٧٩)

لقد كان جيش طلائع أقوى ما يكون، فقد كان لديه خيول عتاق تجتاز الجبال بسهولة كأنها أرض مستوية، وقد سقى هذا الجيش القوي هذه الأراضي بوابل من دم الأعداء، والدروع للماعة ساعدت في سكب دم الأعداء، فأغنتهم عن تسكاب السحب، بحيث أجريت بحار من دمائهم، وهبطت رؤوسهم المقطوعة على الأرض فأخصبت بها، حالما لم تكن هذه المرة أولى مرة روعهم هذا الجيش، وكان ارتفاع صهيل الخيول في الحرب بحيث حال دون وصول صوت نواقيسهم إلى الأذان. والشاعر يتكلم في الشعر من موضع القوة والقهر، يسفر هذا عن قوة روح العزة فيه وفي

١. التنفّ: المفاضة/ السهب: الأرض المستوية البعيدة/ الحزون: ج الحزن: ما غلظ من الأرض/

النجيع: الدم المائل إلى السواد

جيوشه، ولا يستبعد ذلك، فإنهم كانوا في موقف حقّ، وعدوهم المحتلّ في موقف باطل.

والشهاب محمود في مدح الأشرف خليل، لما أخذ عكا من الصليبيين، يَصوّر المعركة وما أُلحِق بهم فيها وهزيمتهم، في تشبيهات لطيفة موضحة، ففي هذه المعركة غاصت البيض في بحر الدماء، وغاصت الأسنة في عيونهم الزرقاء كالحبال التي تهوى إلى الآبار، اشتدّ لهيبُ الحرب حتى ذاب الحديد من حرّها، وزلزل أبطالهم الذين كانوا كالجبال الراسخة من شدة الهول، وأجري بحر من دمائهم، فصار غرقاه كالحبب عليه:

أبدت من البيض إلا ساقُ مُخْتَضَبِ	وخاضتِ البيضُ في بحر الدماء وما
كأنّها شُطْنٌ تهوي إلى قلب	وغاض زُرْقُ القنا في زُرْقِ أعينهم
فزادها الطفحُ فيها شدةً للهبِ	توقّدت وهي غرقى في دمائهم
فقيّدتهم بها دُعرًا يدُ الرهبِ	وذاب من حرّها عنهم حديدهم
حواسسه فغدا كالمنزل الخربِ	كم أبرزت بطلاً كالطود قد بطلت
فراح كالراح إذ غرقاه كالحبب	أجرت إلى البحر بحرًا من دمائهم

(رزق سليم، ١٩٦٥، ج٨، ص٥٥)

التصاوير الفنية البديعة، والأخيلة الرائعة، والبيان الصادق - التي نجمت عن قلب مفعم بأحاسيس مكافحة الضيم - من خصائص بارزة لهذه الأبيات، التي تنبئ عن ترسخ روح العزة في ناظمها الغيور.

الخاتمة

تموج أصداء العزة وإباء الظلم في الأشعار الحماسية للحروب الصليبية، ولا يكون ذلك إلا بترسخ روح العزة في نفوس منشديها، الذين لهم جذور تقع في زلال ماء الثقافة الإسلامية، وأتصلوا بمصدر العزة والقوة الإلهية اللا متناهية. والمحاور الشعرية مثل: تمنّي رؤية فتح البلاد المحتلّة وانتزاعها من المحتلّين الصليبيين، وبعث الغيرة في النفوس واستنهاض هم أمراء المسلمين للجهاد، والاستتكار على أمراء يتقاعسون عن جهاد الصليبيين وعن نصره إخوانهم المقاتلين، والتنويه بحكام حملوا لواء التصدي للمحتلّين وأذاقوهم الذلّ، والإشادة بعزيمة هؤلاء ومضاء هممهم، والعناية بوصف الأضرار التي ألحقها هؤلاء الأمراء بالمحتلّين، وما لحق بهم من القتل والتشريد والأسر، ومدح من قام بأعباء جهاد المحتلّين واسترداد البلدان المحتلّة منهم بعلو هممتهم وعزمهم الماضي، وتحريض قادة المسلمين خاصة على استرجاع بيت المقدس، وتقوية عزائم هؤلاء للاستمرار في الجهاد؛ تتضح بأسرها من هذه الروح فيهم.

المصادر والمراجع

١. نهج البلاغة.
٢. ابرهارد ماير، هانس (١٣٧١ش). *جنگهای صلیبی*. ترجمه عبدالحسين شاهكار، شیراز: انتشارات دانشگاه شیراز.
٣. الأبيوردي، محمد بن أحمد (١٩٨٧). *الديوان*. تحقيق عمر الأسعد، دمشق: دار الفكر.
٤. ابن الساعاتي، بهاء الدين (١٩٣٨). *الديوان*. تحقيق أنيس المقدسي، بيروت: الجامعة الأمريكية، كلية العلوم والآداب.
٥. ابن سناء الملك، عز الدين أبو القاسم (١٩٧٥). *الديوان*. تحقيق محمد عبد الحق، بيروت: دار الجيل.
٦. ابن عنين، نصر بن حسين (١٩٥٩). *الديوان*. تحقيق: خليل مردم بك، بيروت: دار صادر.
٧. ابن نبيه المصري، كمال الدين أبو الحسن (١٩٦٩). *الديوان*. تحقيق عمر محمد الأسعد، دمشق: دار الفكر.
٨. رنيسمان، استيون (١٣٨٠ش). *تاريخ جنگهای صلیبی*. ترجمة منوچهر كاشف، طهران: شركت انتشارات علمي و فرهنگي.
٩. رزق سليم، محمود (١٩٦٥). *عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي*. دار المجامين.
١٠. الحلبي، صفى الدين (دون تا). *الديوان*. بيروت: دار صادر.
١١. عاشور، فايد حماد (١٩٨٨). *جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
١٢. العروسي المطوي، محمد (١٩٥٤). *الحروب الصليبية في المشرق والمغرب*. تونس: دار الكتب الشرقية.
١٣. العماد الإصفهاني (١٩٥٢). *خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء مصر*. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٤. عمارة اليميني، نجم الدين الحكمي (١٨٩٧). *النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية*. تصحيح هرتونغ درنبرغ، مدينة شالون: مطبعة مرسو.
١٥. عمران، محمد سعيد (١٩٩٩). *تاريخ الحروب الصليبية*. بيروت: دار النهضة العربية.
١٦. گروسه، رنه (١٣٨٤ش). *تاريخ جنگهای صلیبی*. ترجمه ولي الله شادان، طهران: انتشارات

وزارت ارشاد اسلامي.

١٧. مجلسي، محمد باقر (١٩٨٣). *بحار الأنوار*. تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٨. المقدسي، شهابالدين أبو شامة (دون تا). *الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. بيروت: دار الجيل.